مجلة الواحات للبحوث والدراسات
ELWAHAT Journal for Research and Studies
Available online at :https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2
ISSN : 1112- 7163 E-ISSN: 2588-1892 المجلد 15 العدد2 (2022): 670– 686

سؤال الهوية والتاريخ في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح

The question of identity and history in "I and Haim" For l'Habib alssayih

عبد الرزاق بوقطوش

جامعة20أوت1955سكيكدة، كلية الآداب واللغات،bourazek24@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/03/14 تاريخ القبول: 2022/01/01 تاريخ النشر :2022/12/14

ملخص:

يدرس المقال في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السايح تشكل مفهوم الهوية الوطنية التي ظلت تتأثر بالكثير من المؤثرات خلال عملية التبلور. ونسلط الضوء على بعض المقومات التي أُغفلت تاريخيا، تلك التي تتأسس عليها الهوية القوية والتي تنبني عليها الأوطان في إطار مشروع مجتمع ينهض بالدولة، ويحكم سلطتها على أسس اجتماعية وثقافية وفكرية متينة. كما يتناول المقال بالدراسة وجوب إعادة النظر في تاريخ ثورة التحرير الجزائرية ووجب كتابة تاريخها من قبل المتخصصين لا السياسيين، من منظور الروائي على الأقل، وإشراك النخبة المثقفة في القراءة والكتابة حتى لا نكرر أخطاء الماضي بغية إرساء قواعد ديمقراطية صحيحة .

كلمات دالة: هوية، تاريخ، ثورة تحريرية، رواية

المؤلف المرسل: عبد الرزاق بوقطوش: bourazek24@gmail.com

Abstract:

In The Novel "I And Haim" By Habib Sayeh, The Article Examines The Formation Of The Concept Of National Identity, Which Has Been Influenced By Many Influences During The Process Of Maturation. We Highlight Some Of The Elements That Have Been Neglected Historically, Those On Which A Strong Identity Is Based And On Which Nations Are Built Within The Framework Of A Community Project That Advances The State And Governs Its Authority On Solid Social, Cultural And Intellectual Foundations. The Article Also Deals With The Study That The History Of The Algerian Liberation Revolution Must Be Reconsidered And That Its History Must Be Written By Specialists, Not Politicians, From The Perspective Of The Novelist At Least, And To Involve The Educated Elite In Reading And Writing So As Not To Repeat The Mistakes Of The Past In Order To Establish Correct Democratic Rules.

Key Words: Identity, History, Editorial Revolution, Novel.

– تقديم:

إذا كانت فترة السبعينيات من القرن الماضي هي البداية الفعلية للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية فإن فترة التسعينيات تعد تجربة رائدة لظهور جيل جديد من الروائيين الذين برزت أسماؤهم في عالم الرواية، وأنتجوا أدبا متميزا في تلك الحقبة التاريخية المظلمة التي عاشتها الجزائر حتى سمي بأدب الأزمة،لأن موضوع العنف والإرهاب كان طاغيا على معظم الأعمال الروائية التسعينية. وما كاد المجتمع بعامة والمثقفين والروائيين بخاصة يتجاوزون هذه المرحلة إلى تناول موضوعات أخرى تطبع أعمالهم السردية حتى تجاوزت الجزائر هذه المحنة.فانقلبوا بسردياتهم إلى مواضيع بعيدة عن الدم والدموع والمحن...ولعل من أهم الروائيين الذين كتبوا حول أدب الأزمة الروائي الجزائري " الحبيب السائح " الذي استطاع بقلمه أن يفرض وجوده في الساحة الأدبية من خلال أعماله القصصية والروائية، وترجم بعضها إلى اللغة الفرنسية*

يقدم الروائي الحبيب السايح روايته"أنا وحاييم" على أنّ "محورها إنساني ومحركها سؤال الهوية وهمها التعايش(1)"(الحبيب السايح، دزاير توب الالكتروني، تاريخ النشر2019/01/16، تاريخ التصفح:2020/03/28،) وهي تقريبا أهم المحاور التي نحاول الوقوف عليها في هذا المقال. ونفتح الدراسة والنقاش حول عمل روائي متين. نقرأ الرواية قراءة تفكيكية على اعتبار أنها (التفكيكية)طريقة لقراءة (أو إعادة قراءة) الفلسفة وخطابات العلوم الإنسانية(2) (خوسيه ماريا إيفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو أحمد، ص174.) يطرح الروائي مسألة الهوية كقضية جوهرية في الراهن الأدبي والثقافي والاجتماعي للجزائر خاصة، على غرار الدول العربية والعالم بأسره..يطرحها ويسائل التاريخ الثوري الجزائري في صيغته الرسمية المتداولة، ويطرح صيغته ورؤيته وقناعته الشخصية التي ما ينفك يصرح بها ويعلنها منذ عمله الروائي الأول "زمن النمرود".

يتناول الروائي مشاركة يهود الجزائر الحرب التحريرية واندماجهم فيها وتفاعلهم الإيجابي إلى جانب ما يسمى في تاريخ الجزائر المعاصر بأصدقاء الثورة من فرنسيين وغيرهم. قضية ظلت طي النسيان مهمشة، وقليلون جدا من عرضها للنقاش وأدلى فيها دلوه، إذا استثنينا رشيد بوجدرة أو الطاهر وطار بحيث تناولوها لكن بصورة تكاد تتوافق مع ما يسوق له الخطاب السياسي الرسمي.يكاد الروائي الحبيب السايح يعرف صديقه اليهودي بالتخييل السردي بالطريقة نفسها التي عرف بها جاك دريدا نفسه:"أنا يهودي جزائري، يهودي لا، يهودي بالطبع.ولكن هذا كاف لتفسير العسر الذي أتحسسه داخل الثقافة الفرنسية، لست منسجما إذا جاز التعبير، أنا إفريقي شمالي بقدر ما أنا فرنسي..."(3)(جاك دريدا،الكتابة والاختلاف،ترجمة كاظم جهاد، ص133) والتعريف هذا يكاد يكون نفسه عند حاييم الرواية، اليهودي الجزائري الذي ينعته المعمرون والفرنسيون بأنّه فرنسي وحتى أساتذته أيضا يحبون تمييزه عن صديقه العربي أرسلان في كل مرة فيجيب:"...لذلك لم أعتبر نفسي يوما فرنسيا"(4)(الرواية، ص76) وكان يخبر صديقه أن والدته أيضا لا تشعر أنها فرنسية، وأنها لا تنقصها سوى الملحفة مثل جدته أو أمه(5)(الرواية،

ص77) ولعل في شخصيته(شخصية جاك دريدا) تقارب كبير مع الحبيب السايح الذي يسير بكتاباته ضد التيار تيار الجوائز العربية، على الأقل،يقول عنه حميد عبد القادر:(6)(حميد عبد القادر. الويكيبيديا،تاريخ التصفح:2020/03/28):"الحبيب السايح روائي النظرة المختلفة والمغايرة والملتزمة. لهذا لن يجد نفسه أبدا في قائمة جائزة تعتمد على معايير يستحيل أن تنطبق عليه. من قرأ رواية ''زمن النمرود'' وأدرك هواجسها، يشعر جيدا أن روح التمرد وعدم الرضا والإيمان العميق بقضايا الإنسان، موجودة في ''كولونيل الزبربر''، حيث يتصارع الخير مع الشر، والحقيقة مع الكذب، والنبل مع الانحطاط الأخلاقي، والتاريخ الرسمي مع الذاكرة النابضة التي تبرز من خلال ما يتركه الفاعل المهمش.إن لحبيب السايح روائي الهامش، يسير بمحاذاة الألم، هو كاتب الذات التي تعاني، وليس الذات التي تبحث عن اللذّة والمتعة وتريد الانغماس في ثقافة الاستهلاك. هو روائي يريد قتل النظرة الاستشراقية للعالم العربي – الأمازيغي، والتي ترى أن إنسان العالم غير الغربي ليس في النهاية سوى جسد بلا عقل"(7)(الحبيب السايح.. روائي خارج معايير "البوكر"مقال حميد عبد القادر ،تاريخ التصفح:2020/03/28.)...

2– هل يلغي التاريخ مشارب مختلفة للهوية؟

تشير الرواية إلى الحقل الثقافي وامتداده الداخلي في الأوساط المثقفة الذي تمخضت عنه الثورة داخل جامعة الجزائر وتشعبه إلى المنظمات السرية والأحزاب والحركات بمختلف مشاربها الفكرية والإيديولوجية...وما تلك المساجلات الفكرية التي حضرها أرسلان وصديقه حاييم أو شاركا فيها. وحتى اللذين دخلا على الخط في السرد الروائي حسيبة والصادق.. وبالتنوع الإيديولوجي لديهم إلا دليل على توجه الروائي إلى ذلك..ولعله يشير إلى موضوع غاية في الأهمية موضوع المهمش في صناعة الثورة، وهو "أصدقاء الثورة" ممن شارك فيها وكان فاعلا في الميدان أو خارجه.. ومن جنسيات أخرى وهويات أخرى وديانات أخرى... بل لعل تلك المساجلات عدت الفهم الحقيقي للثورة.. وهي الانطلاقة الحقيقية للوعي بالوضع المزري. فحسيبة الطالبة

الجامعية هي الثورية البارزة أيقونة الثورة "حسيبة بن بنو علي" رفيقة المجاهدين. وهي شهيدة القصبة، وهي المجاهدة الصغيرة الجميلة التي أهدت شبابها، وضحت به في سبيل الوطن...

يحتاج التاريخ دوما إلى إعادة فهم .ويحتاج البشر، ذوو التاريخ العريق خاصة، إلى أن يحذروا السقوط ضحايا لتواريهم ظنّا منهم أنهم إنما يتوقفون لتقديسه وتبجيله...فنحن بحاجة ماسة لأن ننتقل من تقديس التاريخ بصفته قدرا محتوما إلى إعادة فهم التاريخ بصفته فاعلية حققها أسلافنا"(8)(قاسم عبده قاسم، إعادة قراءة التاريخ، ص07)

يتشكل الخطاب التاريخي من خلال علامات لغوية تاريخية تظهر في أقوال الشخصيات وأفعالهم، أو من خلال الاستعانة ببعض الإشارات الزمنية الدقيقة الدالة على أحداث تاريخية معينة،أو استحضار الوثائق التاريخية وغيرها من المعطيات."وفي هذا يتداخل المعنى المقصود مع التناص كتقنية نقدية في النهل من مناهل العلوم الأخرى حيث يتخذ التناص صورة طريفة في الرواية التاريخية باستدعاء التاريخ الماضي لإنشاء خطاب الرواية الراهن"(9) (القاضي محمد، الرواية والتاريخ طريقتان في كتابة التاريخ روائيا ،ص4)...

كان ابن باديس رحمه الله في حركته الإصلاحية العميقة في الجزائر خلال حربه ضد المحتل، وفي دفاعه المستميت على الثوابت الوطنية وعمله الدؤوب على المحافظة على الهوية الوطنية الذي كان بالمرصاد، ببصيرته ونظرته الثاقبة، لمشاريع المحتل الغاصب ومحاولاته لطمس هذه الهوية بشتى الأساليب التي تفطن لها في مهدها فحاربها وكانت الجمعية لها منافحة. "وكان –رحمه الله– بعيد النظرة الاستشرافية لمآلات هذه الحرب، إذ كان كثيرا ما يحث تلامذته وأتباعه على نبذ التعصب والحقد والبغض والكراهية لمن يخالفهم في الدين أو الجنس، وأن يعملوا على نشر المحبة والأخوة بين الناس بأعمالهم وسلوكهم العام لأن هذا هو روح الإسلام وجوهره..."(10)(علي ارفيس، مفهوم الهوية في الخطاب الإصلاحي–جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجا– ص495)

يقول ابن باديس في هذا الشأن:"نهضتنا نهضة بنيت على الدين،فكانت سلاما على البشرية...لا يخشاها —والله–النصراني لنصرانيته، ولا اليهودي ليهوديته، بل ولا المجوسي لمجوسيته، ولكن يجب– والله–أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته"(11)(محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر ، ص65)

– جسد لنا السائح، بمفهوم ابن باديس السابق، مفهوما عميقا للثورة في روايته عبر الصداقة المتينة التي جمعت بين أرسلان حنيفي، وهو مسلم جزائري، وبين حاييم بنميمون، وهو يهودي جزائري متجنّس بالهوية الفرنسية. وهذا المفهوم يتمثل في أنّ الثورة هي منجز حداثي؛ إذ لا تثور المجتمعات إلا على الظلم، ولا يمكن لها أن تثور على هوياتها المختلفة التي تشكّل نسيجها المتين..كانت الثورة بحق ثورة على الظالم لظلمه لا ثورة على دين ولا على جنس ولا على عرق...

ذكر لحسن زغيدي في كتابه مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني أنّه ليس من هدف الثورة الجزائرية رمي الجزائريين من ذوي الأصول الأوروبية في البحر، إنما هدم النير الاستعماري. كما أنّ الثورة ليست حربا أهلية دينية بل أنها ثورة تريد الاستقلال وإقامة جمهورية ديمقراطية واجتماعية تضمن المساواة بين مواطني الوطن الواحد(12)(محمد لحسن زغيدي ,مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية1956 – 1962 ،ص138).

تبدو العلاقة بين أرسلان وحاييم هي العلاقة الطاغية في الرواية، وبذلك يمكن اعتبارها بؤرة العمل الروائي ككل.إذ أنّ الرواية لم تفصل بين الشخصيتين، على الرغم من أنهما (أي أرسلان وحاييم) ينتميان إلى ديانتين مختلفتين، فقد ترعرعا معا، وتدرجا في الأطوار التعليمية معا، وتفوقا معا في دراستهما، قبل أن يلتحقا بالجامعة، أرسلان في قسم الفلسفة، وحاييم في قسم الصيدلة. لم تفرق بينهما حتى ظروف الحرب التحريرية؛ فأرسلان التحق بصفوف جيش التحرير الوطني، أما حاييم فقد كان يناضل في السر، من خلال توفير الأدوية للمجاهدين. ومع ذلك، ظلّت العلاقة وطيدة أكثر فأكثر...

من خلال هذه القصة بعث السايح "إمكانية إعادة قراءة الثورة التحريرية كحدث إنساني تجاوز الغيتو الهوياتي. بل على العكس من ذلك، فقد وضح أنّ الوطن يقبل كل أبنائه، وأنّ غاية الثورة هي تحرير العباد ليس من الاستعمار فقط، بل من تخلّفهم ومن انغلاقهم"(13) (رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح/... بن علي لونيس، تاريخ التصفح:2020/03/26.)

– لقد أعاد النقد ما بعد الكولنيالي تعريف وظيفة السرد مسلحا بأدوات تفكيكية في نقد المركزيات وزحزحة ما يحوم حولها من مفاهيم، "فلم يعد السرد وسيلة للخلق الفني بل أداة لإنتاج

الوعي والمعرفة بالذات وتحرير الحقيقة من أسيجة الرؤية الأحادية التي أنتجتها الثقافة الأوروبية بإيعاز من سلطة مركزياتها الكثيرة..."(14)(بن علي لونيس،الاستراتيجيات التمثيلية في السرد الروائي العربي المعاصر لقضايا الهوية واللغة والآخر،ص284) والوضعية تكاد تكون متطابقة على الوطن العربي بعامة وعلى الجزائر بعد الاستقلال بخاصة عندما استبدت السلطة بمركزيتها في تبني خطاب واحد في قراءة الثورة وأزاحت من المشهد كل قراءة تخالف توجهها أو قناعاتها أو سياساتها المبنية على الشرعية الثورية والتي غالطت بها جموع الناس وأجحفت بذلك كثيرا في قراءات جادة ومتميزة لتاريخ الثورة حتى عهد قريب...

3– العوامل الثقافية المشكلة للذهنية الوطنية:

بالإضافة إلى عاملي اللغة والتاريخ هناك عامل بالغ الحساسية في تشكيل الذهنية الوطنة والانتصار لها والدفاع عنها هو عامل "الإرادة في العيش المشترك" هذه الإرادة هي التي بنى عليها الروائي الحبيب السايح روايته ككل وجعل منها محورا تأسست عليه رؤيته، وقعدت لنظرته الجديدة نحو فهم ووعي عميقين لبناء الدولة، إضافة إلى العوامل الأخرى التي لا تغفلها الدول في قيامها...

يتحدث أنتا ديوب(مؤرخ وباحث في الأنتروبولوجيا من السنغال) عن الوعي التاريخي الذي عدّه العامل الأكثر صلابة وهو الرابط الأمني الثقافي الأكثر قوة بالنسبة للشعب وذلك بفضل الشعور بالانسجام الذي يثيره لديه(15) Cheikh Anta Diop.de l'identité culturele.P64) ويتحدث أيضا عن عوامل أخرى بالغة الأهمية في تماسك الأمة كعوامل اللغة والدين.لكن ساطع الحصري(1968/1879) يتحدث بالإضافة إلى عوامل اللغة والدين والتاريخ عن "الإرادة في العيش المشترك" هذه الإرادة التي لا تتوافر بصورة تلقائية خاصة إذا نظرنا إلى بعض الدول التي نشأت تحت سطوة القوة والعنف كما حدث في الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية في ق19.بينما هناك أمثلة عديدة لبناء الدول وفق هذه العوامل أو تهدمها نظرا لغياب الإرادة في العيش المشترك رغم توافر باقي العوامل، وخير مثال على ذلك الاتحاد السوفياتي الذي أفضى إلى التفكك لأن شعوبه لم تكن ترتبط فيما بينها بمقومات ثقافية مشتركة ولا توافرت الإرادة لديها في العيش المشترك(16)(إبراهيم سعدي، الثقافة والهوية والدولة، ص143)

رغّب الروائي في تفعيل عامل الإرادة في العيش المشترك وأعلى من شأنه في الرواية رغم التباين الواضح في عامل التاريخ واللغة والدين التي لا تجمع إطلاقا بين أرسلان المسلم الجزائري المتكلم للعربية والذي يجيد الفرنسية وصديقه حاييم اليهودي الحامل للجنسية الفرنسية..وتعمل الظروف المعيشية والدراسية وحتى الاقتصادية والثقافية على الحيلولة دون تقارب الصديقين الحميمين لكن الرغبة في العيش سويا ومقاسمة الهموم معا في الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية..والأدهى من كل ذلك مشاركتهما معا في العمل الثوري واقتناعهما به...ليس ذلك إلا إرادتهما القوية في العيش المشترك.

يطرح الروائي هذا العامل بقوة ويراه أنّه الأقدر على تجاوز الكثير من المحن السياسية التي قضت مضاجع المجتمعات التي تغالي في طرح عوامل التاريخ واللغة والدين على أنها وحدها البانية لتماسكها الاجتماعي والسياسي.."والتركيز على الإجماع والنفور من المواجهة في معالجة المشاكل السياسية يؤديان إلى لامبالاة الجماهير سياسيا.لهذا السبب. فالمجتمع الديمقراطي بحاجة ماسة إلى نقاشات سياسية حقيقية حول مختلف البدائل.إذن يجب التوفر على هويات سياسية مختلفة تدور حول تيارات متعارضة..."(17)(نور الدين علوش، السياسي وديناميكية المشاعر الجماعية للفيلسوفة البلجيكية شانطال موف، ص151).

– كان اختيار الحبيب ا لسايح الكتابة في هذا الموضوع، كما صرح بذلك، نابعا من قناعته ''بأنّ اليهود الجزائريين شكّلوا جزءا لا يتجزأ من مكونات البلد البشرية والتاريخية والثقافية'' ومن ثم صارت الرواية دفاعا عن اليهود الذين عاشوا في الجزائر وخرجوا منها طوعا أو كرها...

كان بإمكاننا الاستناد إلى ما صرح به الحبيب السايح، فجعلنا نطمئن إلى أنّ الرواية تحكي قصة حاييم، الّذي يقدم في الرواية باعتباره نموذجا مثاليا لفئة من اليهود الجزائريين الذين رفضوا الانخراط في المشروع الصهيوني، وفهموا المواطنة بعيدا عن أي تشنج ديني، أو تعصب طائفي، ويكون بذلك الحبيب السايح قد بين لنا، من خلال هذا النموذج، أنّ أي حديث عن الديمقراطية، أو العدالة، أو العيش في سلام، في ظل سلطة شرعية لا بدّ أن يمر من خلال قناعة حقيقية بوجود مشترك دون اعتبار لأي معيار آخر لمفهوم المواطنة بعيدا عن أي تشارك إنساني، وهو ما يعكسه العنوان ''أنا وحاييم'' الّذي يحمل في صيغته سؤالا حول إمكانية تدبير عملية الانتقال إلى تحقيق هذا البعد التشاركي. وتسعى الرواية للوصول إليه في آخر المطاف كدعوة إلى

إحياء فكرة التعايش والتسامح التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري طيلة قرون(18)(آمنة بلعلى، زحام الأنساق في رواية ‘‘أنا وحاييم’’ للحبيب السايح..مجلة كلمات للإبداع والفكر الالكترونية)

رواية ‘‘أنا وحاييم’’ التي تحكي ظاهريا إيقاع الصداقة بين مسلم ويهودي تطرح أكثر من تساؤل يرتبط بعضه، بسياق كتابة هذه الرواية، ونحن نعيش تحولا في علاقة العرب مع إسرائيل، وفي علاقتهم مع بعضهم بعضا، ليتجدّد الكلام عن الأقليات والإثنيات والثقافات القومية والطوائف، وغيرها من المكونات التي عدّ تغييبها عاملا من عوامل تغييب الوعي التاريخي بها، " وعدّت كذلك عاملا فيما وصلت إليه البلاد العربية من تشرذم، وصراعات تغذّيها أقانيم خطابية ثلاثة هي مقولات: الإرهاب والعولمة والحوار. أما الخطاب الأول فيقوم على الإدانة، والثاني على بسط الهيمنة بالوسائل الناعمة وأما الثالث فينخرط في خطاب الدعوة إلى التعايش الإ نساني، ولذلك نعتبر مثلما ذهب إلى ذلك الحبيب السايح أنّ هذه الرواية تندرج في الشق الثالث من هذه الثلاثية"(19)(آمنة بلعلى، زحام الأنساق في رواية "أنا وحاييم").

ولتحقيق التعايش الإنساني المنشود الذي تحدثنا عنه سابقا تحت مسمى الإرادة في العيش المشترك كان على الروائي أن يقوم بـ:

ا) تحيين مجموعة من القيم تماشيا مع هذا التعايش حتى وإن كانت هذه العملية غير واعية، ربما تدور في اللاشعور لدى الروائي...

ب) على الروائي أن يصوغ الهوية المتشكلة من هذه الثنائية أنا وحاييم" ويبحث لها عن ملامح تحقق القبول وتكون مقنعة وعليه أن يدير ذلك لتحقيق التعايش...

ج) ربما عليه أحيانا أن يتنازل عن قيم لصالح قيم أخرى لتحقيق صبغة الهوية الثقافية التي يرجوها من هذه الثنائية

د) رسخ فعل الهوية من خلال تعزيزه التشارك بين الشخصيتين في كل شيء من الصبى إلى الدراسة إلى الجامعة إلى الانخراط في الثورة، مما مكّنه من تأسيس هذه الهوية الثقافية المتشابهة...(20)(آمنة بلعلى، زحام الانساق في رواية أنا وحاييم).

تكون الهوية عند الشعوب والأمم لا يتم في زمن قصير، إنها نتاج حقب تاريخية طويلة،تتمازج فيها عناصر كثيرة، من تجارب الأجداد إلى بيئة جغرافية مشتركة، بالإضافة إلى المشتركات الدينية

واللغوية والاجتماعية كالعادات والتقاليد وتنمو الهوية وتتعرض لعملية التمحيص والغربلة ولا يبقى منها إلا العناصر الأساسية التي تعبر عن المشترك الثقافي.(21)(عبد الغاني بو السكك،الهوية والاختلاف بين التواصل والصدام، ص60)

وهذا ما عبر عنه الحبيب السايح في الرواية داخل هذا الحوار القصير الذي أجراه داخل مطعم هو وصديقه حاييم أمام مسمع ومرأى من أوروبيات يتناولن الغداء.تقول إحداهن مشيرة إلى صداقة الرجلين:"من الصعب أن تدمجي في ثقافتك وحضارتك أصحاب دينين مثلهما"(22)(الرواية، ص159) وفي رد حاييم على أحدهم عندما استغرب عدم مغادرته إلى فلسطين مثلما فعل الكثير من بني جنسه:

"إلى أين تريدونني أن أغادر، هذا وطني، هنا ولدت وولد آبائي، وأخلاط جسدي من تربة هذه الأرض.وفيها أدفن مثل آبائي.فلسطين ليست أرضي ولا وطني."(23)(الرواية، ص162) وكلام الروائي هذا على لسان صديقه يدل على أن الروابط بين الأفراد داخل المجتمع تبنى على أسس ثقافية.

4- ثنائية "أرسلان وحاييم"تمثل الضمير الإنساني حيال ثورة التحرير:

لقد منحت لنا رواية أنا وحاييم معرفة وجهة نظر مغايرة للتاريخ (تاريخ الثورة بالأخص) من خلال هذه الثنائية. ولقد وجدنا بأنّ لجوء الروائي إلى هذه الثنائية في السرد كان بهدف نقد التاريخ الثوري، باعتباره تاريخا بشريا، لا حدود فاصلة فيه بين الخير والشر. إنّه يحفر في الأرشيف الخفي للفاعلين التاريخيين، فالكثير منهم تحولوا بين ليلة وضحاها إلى أبطال، بعد أن كانوا سنوات الثورة في خدمة العدو...

شخصية أرسلان ابن القايد التي شاركت في الثورة واقتحمت العمل المسلح ضد العدو بددت النظرة المشؤومة التي ظل الجزائري يحملها لهذه الفئة خلال الثورة وقبلها..فحتى أبناء القياد ممن عملوا إلى جانب الفرنسيين أو المعمرين وامتازوا عن بقية الشعب بالأملاك والأراضي ورفاهية العيش، وأبناؤهم يدرسون ويدخلون الجامعة هم أيضا صنعوا الثورة والتحقوا بها من الأوائل ناهيك عن فئة أخرى شكلتها الثنائية، لا هم من جنس الجزائريين ولا من دينهم ولا من أعراقهم هم اليهود. يقول غاندي:"لا مانع لدي من أن أفتح نوافذ بيتي للرياح من كل جهة، لكنني أرفض لهذه الرياح أن تقتلعني من جذوري"

كل العوامل التي تدفع للوقوف في وجه الغاصب المحتل متاحة.شارك الجميع وحمل السلاح الجميع ووقفوا بين الثوار جنبا إلى جنب مشكلين هوية واحدة هي الهوية الجزائرية الثورية، ولم تحمل الثورة صبغة أخرى حتى لا يتم احتكارها من قبل فئة معينة، في رسالة واضحة من الروائي في شكل مفهوم جديد للشرعية الثورية التي ظلت تتغنى بها السياسة المركزية...

يأمل الروائي الحبيب السايح على بحث المنابع الأخلاقية للهوية الحديثة عند طرحه لهذه الثنائية "أرسلان وحاييم" التي يراها تنبع من ثلاث منابع أساسية:

أ) الحياة العادية: وتتجسد في قيمة الكرامة المتساوية للبشر كما يفهمها المعاصرون..

ب)العقل المتجرد: يتصور الإنسان نفسه كائنا مفكرا عقلانيا متجردا من كل ما قد يشوش على تسيد هذا العقل.وهو مفهوم أفضى إلى تأكيد مفهوم الحرية والاستقلال الذاتيين ومنه كرامة الكائنات البشرية.

ج)تأكيد الفردانية وإجلال التمييز الإبداعي وتثمين قيمة الأصالة...

هذه المنابع يتحدث عنها تشارلز تايلور قائلا:"والغاية من تأسيس هذه الأنتروبولوجيا الفلسفية، ليست مجرد غاية نظرية فحسب بل هي تطمح أساسا لغايات عملية مرادها "تغييرنا بتغيير فهمنا لذواتنا وتجاوز إحراجات وضعنا الحداثي"(24)(محمد المحيفظ، هوية الإنسان الحديث والمعاصر عند تشارلز تايلور، ص97)

الحبيب السايح روائي إشكالي، رجل يسير عكس التيار، ويصر على مواقفه. روائي يقاوم النسيان، ويفجر التساؤلات العميقة. ويرفض التاريخ الرسمي، ويعيد صياغة أحداثه من جديد على ضوء الحقيقة، وعلى ضوء الانتصار للهامش المسحوق.

من قرأ رواية ‘‘زمن النمرود’’ وأدرك هواجسها، يشعر جيدا أن روح التمرد وعدم الرضا والإيمان العميق بقضايا الإنسان، موجودة في ‘‘كولونيل الزبربر’’، حيث يتصارع الخير مع الشر، والحقيقة مع الكذب، والنبل مع الانحطاط الأخلاقي، والتاريخ الرسمي مع الذاكرة النابضة التي تبرز من خلال ما يتركه الفاعل المهمش.

"إن لحبيب السايح روائي الهامش، يسير بمحاذاة الألم، هو كاتب الذات التي تعاني، وليس الذات

التي تبحث عن اللذة والمتعة وتريد الانغماس في ثقافة الاستهلاك. هو روائي يريد قتل النظرة الاستشراقية للعالم العربي – الأمازيغي، والتي ترى أن إنسان العالم غير الغربي ليس في النهاية سوى جسد بلا عقل".(25)(الحبيب السايح.. روائي خارج معايير "البوكر" مقال لحميد عبد القادر).

– تطرح الثنائية "أنا وحاييم" قضية جوهرية للنقاش الاستراتيجي إن صح وصفه هكذا لما له من حساسية مفرطة لدى الجزائريين بالخصوص.اليهودي في الأوساط الشعبية بالخصوص في الجزائر يحمل محمولات العداء والنفور والاشمئزاز إلى درجة إذا ذكر استعاذ الواحد منه مباشرة، وقد يتعدى الأمر إلى الأوساط الثقافية ولكن بحساسية حذرة، الأمر الذي يدعو إلى تناول هذه العلاقة بنوع من الحذر الشديد وإلا نظر إلى متبنيها أو الداعي إليها بعين الريبة والشك والتوجس...

لكن الروائي يصور العلاقة الحميمة جدا مع هذا اليهودي الذي لازمه وتعلق به وأجرى السرد كاملا بمعيته ولم يغفل حضوره في كل المشاهد..وأدخله حتى في الثورة وكان فاعلا إيجابيا فيها بالدعم والإسناد اللوجيستيكي، وكان إيجابيا حتى في نظرته لفلسطين المغتصبة، فهي ليست أرضه ولا موطنه ولا يتمنى الذهاب إليها، بل يتمنى الموت على هذه الأرض ويدفن فيها، شأنه في هذا شأن آبائه وأجداده...ويبدو الأمر جريئا جدا من قبل الروائي المثقف الواعي كالحبيب السايح الذي يطرح مثل هذه المواضيع التي تعد من الطابوهات في المجتمع، وأصحابها أصحاب الهامش السحيق الذي لا يسمع إطلاقا لأطروحاتهم الفكرية.ومثل هذه القضايا مهمشة مركزيا وشعبيا.

تبدي الثقافة التقليدية للمجتمع مقاومة عنيدة أمام أطروحات المثقفين، مما يحد من فعالياتهم وتأثيرهم على الحراك الاجتماعي، "فإما أن ينعزلوا في أبراج عاجية ويزدروا المجتمع الذي يزدريهم بدوره وإما أن يخوضوا معركتهم في الميدان بصبر وتفهم إزاء المجتمع"(26)(سامية إدريس، تمثيل الصراع الرمزي في الرواية الجزائرية، دراسة في علم اجتماع النص الأدبي، ص94)

نقطة الانطلاق في أي علاقة يقيمها المسلم مع غيره في الإسلام هي العدل والحرب عندنا ضد الصهاينة وليس ضد اليهود.

الدولة الصهيونية ليست دولة يهودية لأنها لا تلتزم بأي أخلاقيات من أي نوع. هي تلتزم بالأخلاقيات الدارونية الإمبريالية أي أن صاحب القوة من حقه أي شيء، والقوة فوق الحق. أما بالنسبة للجانب الأنثروبولوجي ففيه إشكالية؛ فيهود اليوم معظمهم لا يؤمن بالتوراة أساسا ولا يؤمن بالبعث أصلا. يعني لو أخذنا إحصائية سنجد أن 50% من يهود العالم من الملاحدة يسموا باللغة الإنجليزية (Atheist Jews) أي اليهود الملحدون بمعني أنهم لا يؤمنون لا بالبعث ولا بالتوراة ولا بأي شيء. يتبقى بعد ذلك 50% من هؤلاء ما يقرب من 90% منهم من ينتمون لمذاهب يهودية مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة. كل هذه المذاهب ابتعدت عن اليهودية إلى درجة أنه لا تعتبر يهودية على الإطلاق، لأنهم يعترفون بالشذوذ الجنسي، غيَّروا الطقوس وهكذا حتى أن اليهود الـ5% المتبقية اليهود الأرثوذكس يقولون أنه ليسوا بيهود، ويقولون الآن اصبح في العالم يوجد يهوديتان. وبالتالي مصطلح يهود كما جاء في القرآن لا ينطبق إلا على حوالي 5% من يهود العالم هم اليهود الأرثوذكس، بعضهم أصبح من الصهاينة.لكن يوجد عدد كبير منهم مثل أعضاء الناتوريكارتا لا يزالون متمسكين بالعقيدة اليهودية التي سادت في العالم حتى بداية القرن العشرين. هؤلاء يرفضون الصهيونية ويقيمون يوم حداد يوم إعلان استقلال إسرائيل. أما فيما يخص حوار الأديان: الحوار مع الأديان مسألة مهمة جدا كما بيَّن الشيخ القرضاوي، لكن يجب أن نبين من البداية أن الحوار مع ممثلي العقيدة اليهودية ليس له أي علاقة بالدولة الصهيونية. علاقتنا مع الدولة الصهيونية هي علاقة عداء لأنهم من المغتصبين، لكن يجب ألا نربط بين اليهودية والصهيونية على الإطلاق...(27)(يوسف القرضاوي وعبد الوهاب المسيري،علاقة المسلمين باليهود،حوار على الجزيرة الإخبارية الالكترونية،)

إن هذه الثنائية من الروائي التي أدارها على مدار كل السرد وبهذه الأوصاف وبهذه الشاكلة كأنه يريد من القارئ أن يجري شروطه للقبول بها.فإما أن تكون على هذه الشاكلة وإلا فلا.وبالعودة إلى الرواية، وبعد أن تعرفنا على حقيقة الطرح الفكري الذي بسطه الروائي من خلال هذه الثنائية، علينا طرح هذه الأسئلة المنهجية وننظر في العمل الروائي ونبحث لها عن أجوبة.لقد رسم لنا السايح دورا لليهودي مشيدا ثقافيا في فضاء من التهميش، فأبقاه وحيدا ومات وحيدا بالسرطان داخل النسيان والصمت، ولذلك، بدا البيت المهجور الصامت الّذي

استهل به الرواية هو نفسه القبر الّذي انتهت إليه حياته، لقد حصره بين بيت وقبر، ولم يمكّنه من امتلاك وطن، لا بالإبقاء على انتمائه لوالده، ولا ترك وراءه وريثا يضمن له ذلك الامتلاك، ولعل انتهاء حكايته بالموت تستجيب لانتهاء الدور الّذي أنيط به، وكأنّه جاء فقط من أجل تحسين صورة اليهودي للإيهام بالوطنية والتاريخية، وبانتهاء هذه الوظيفة انتهت حياته. "ولذلك بدت الحياة عند حاييم وبهذا الدور الّذي مارسه مجرد حياة لا معنى لها ولذلك لم يستطع الاستمرار في الحياة فمات بالسرطان. والسائح هنا ومن خلال هذا النسق المضمر الّذي يتسرب إلينا من لا وعيه كأنّه يضع مفهوم التعايش مع اليهود والتاريخ الّذي صنعه لليهودي بين احتمالين إما أنّها مجرد أوهام وتخيلات يمتنع تحقيقها وإما حياة لا يمكن احتمالها والتمتّع بها"(28)(آمنة بلعلى، زحام الانساق في رواية أنا وحاييم).تتكرر الثنائية"أنا وحاييم" في الرواية وتتعدد مواضعها والسياقات التاريخية الجامعة بينها والسياقات الثقافية المحددة لها وكذا السياقات الاجتماعية والتأثيرات الجانبية التي تأثرت بها والظروف الجاذبة لطرفيها وأخرى منفرة، كل ذلك تقر بأنّ الهوية لا تتشكل بعنصر واحد ،كأن العقيدة الدينية لوحدها أو الانتماء العرقي لوحده، فثمة روابط مجتمعية حتمية ومصيرية تدخل في تكوين الهوية، ولعل أكثرها قوة هي رابطة العيش المشترك والمصالح المشتركة والمصير المشترك والتاريخ الخاص المشترك، وتتداخل معها مشتركات أخرى لها عمقها في النفس مثل الفلكلور الشعبي الخاص بكل مجتمع...

5– خاتمة:

توصلت الدراسة إلى أنّ رواية السايح "أنا وحاييم" رواية التاريخ تحمل مشروعا بنائيا مجتمعيا طموحا، يدعو فيه السايح إلى بناء المجتمع على أسس التعايش والمواطنة الحقيقية التي تكرس فيها الكفاءة والاقتدار في تولي المسؤولية.

كما أبانت الرواية عن جوانب مهمة في تاريخ الثورة، ليس ذلك من باب أنّ التاريخ غفل عنها بل من باب إعادة طرح المسكوت عنه في أزمنة سابقة، وإعادة طرحه للنقاش الجاد، وتعرية النقائص التي وقعت فيها السلطات المتعاقبة على الحكم في الجزائر منذ الاستقلال.

لم يرم الحبيب السايح وفق منظورنا إلى كسر قدسية الثورة في نظر أهلها أو في نظر المتأثرين بها في العالم، بل دعا إلى كسر الأصنام التي شيدت لأشباه الأبطال ممن تغنوا بالبطولة فيها، كما دعت الرواية إلى إعادة قراءة تاريخ الثورة وإيلاء عملية القراءة والكتابة لتاريخها للمختصين وعرض العمل على مثقفي البلد والخروج بمشروع مجتمع يعكس تصورا جديدا جادا وجديا لتولي المسؤولية.

الهوامش:

* الحبيب السايح:كاتب روائي جزائري, خريج جامعة وهران, حاصل على ليسانس آداب (1980). دراسات عليا ما بعد التدرج.اشتغل بالتدريس في المعاهد التكنولوجية للتربية، وعمل سابقا أستاذ مشارك في جامعة التكوين المتواصل، وفي معهد اللغة الفرنسية/ مركز سعيدة الجامعي، وهو متفرغ للكتابة حاليا .له عدة روايات مطبوعة داخل وخارج الوطن ومنها المترجم إلى لغات أخرى. منها زمن النمرود(1985)، وذاك الحنين (الجزائر 1997)، وتماسخت (الجزائر 2002)، وتلك المحبة(الجزائر 2002)، ومذنبون..لون دمهم في كفي (الجزائر 2009)، وزهوة (الجزائر 2011)، والموت في وهران (القاهرة2013)، وكولونيل الزبربر (بيروت2015)، ومن قتل أسعد المروري (الأردن 2017). الرواية:الحبيب السايح،أنا وحاييم،دار ميم للنشر، الجزائر، ومسكيليانى، تونس، ط1، 2018.

1)الحبيب السايح، حوار على: https://www.dzair-tube.dz/، تاريخ النشر2019/01/16، تاريخ التصفح:2020/03/28، أجرى الحوار مع الروائي:ليكنس كالي محررة في صحيفة أرابليتي.

2)خوسيه ماريا إيفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، الفجالة، 1992، ص174.

3)جاك دريدا،الكتابة والاختلاف،ترجمة كاظم جهاد،دار توبقال،المغرب، 1988، ص133

4)الرواية، ص76

5)الرواية، ص77

6)حميد عبد القادر روائي جزائري، له مؤلفات في الرواية والأدب والتاريخ الجزائري المعاصر. ولد عام 1967،عمل في الإعلام والصحافة.الويكيبيديا،تاريخ التصفح:2020/03/28 .

7)الحبيب السايح.. روائي خارج معايير "البوكر" مقال لحميد عبد القادر في الخبر الالكتروني صادر في: 17يناير 2016 ،تاريخ التصفح:2020/03/28.

8)قاسم عبده قاسم، إعادة قراءة التاريخ، وزارة الإعلام، الكويت، ط1 ، أكتوبر، سنة 2009 ، ص07

9)القاضي محمد، الرواية والتاريخ طريقتان في كتابة التاريخ روائيا ، مجلة فصول، المجلد 16 ،ع 04 ، ربيع 1998 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص4

10)علي ارفيس، مفهوم الهوية في الخطاب الإصلاحي–جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجا– ضمن السؤال عن الهوية، إشراف وتحرير البشير ربوح،منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت،ط1، 2016،ص495

11)محمد المیلي، ابن باديس وعروبة الجزائر،وزارة الثقافة، الجزائر،2007، ص65

12)محمد لحسن زغيدي ,مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية1956 – 1962 ،د.ط،دار هومة، الجزائر، 2009، ص138

13)رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح/...لونيس بن علي ناقد من الجزائر.تاريخ النشر الالكتروني في موقع "جزائر أولترا":2019/10/16، تاريخ التصفح:2020/03/26.

14)بن علي لونيس،الاستراتيجيات التمثيلية في السرد الروائي العربي المعاصر لقضايا الهوية واللغة والآخر، من السؤال عن الهوية،ص284

15)Cheikh Anta Diop.de l'identité culturele.in l'affirmation de l'identité culturelle et la formation de la conscience nationale dans l'Afrique contemporaire.UNESCO.1981.P64

16)إبراهيم سعدي، الثقافة والهوية والدولة، ضمن السؤال عن الهوية، ص143

17)نور الدين علوش، السياسي وديناميكية المشاعر الجماعية للفيلسوفة البلجيكية شانطال موف، ضمن السؤال عن الهوية، ص151، والمقال مهم للغاية ، يفصل فيه الباحث جيدا بين مقولة الخصم والعدو في النظرة المركزية للسياسة الديمقراطية.

18)آمنة بلعلى، زحام الأنساق في رواية ''أنا وحاييم'' للحبيب السايح..مجلة كلمات للإبداع والفكر الالكترونية، http://kalimates.com/1991تاريخ النشر الالكتروني2020/03/21، تاريخ التصفح:2020/03/23

19) آمنة بلعلى، زحام الأنساق في رواية "أنا وحاييم".

20) آمنة بلعلى، زحام الانساق في رواية أنا وحاييم.

21) عبد الغاني بو السكك،الهوية والاختلاف بين التواصل والصدام، ضمن السؤال عن الهوية، ص60

22) الرواية، ص159

23) الرواية، ص162

24) محمد المحيفظ، هوية الإنسان الحديث والمعاصر عند تشارلز تايلور، ضمن السؤال عن الهوية، ص97

25) الحبيب السايح.. روائي خارج معايير "البوكر" مقال لحميد عبد القادر في الخبر الالكتروني صادر في: 17يناير 2016 ،تاريخ التصفح:2020/03/28

26) سامية إدريس، تمثيل الصراع الرمزي في الرواية الجزائرية، دراسة في علم اجتماع النص الأدبي، ص94

27) يوسف القرضاوي وعبد الوهاب المسيري،علاقة المسلمين باليهود،حوار على الجزيرة الإخبارية الالكترونية، https://www.youtube.com/، تاريخ النشر:2005/01/19. تاريخ التصفح: 2020/03/31

28) آمنة بلعلى، زحام الانساق في رواية أنا وحاييم.